القصة القصيرة في قطر

بقلم: محمد طالب الدويك

تبدأ القصة القصيرة في منطقة الخليج العربي من ثلاثين سنة تقريباً أو أكثر قليلاً من الزمن، حين اجتاحت هذه المنطقة ثورة حضارية شاملة تزامنت مع الفيء الجديد الذي أفاء الله به عليهم، ألا وهو اكتشاف البترول وتزايد موارده وانعكست آثارها على أنماط الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للإنسان في هذه المنطقة بحيث طغت مظاهر التحضر بمقوماتها المادية على ملامح الأصالة التي تميزت بها المنطقة من زمن طويل مضى، والتي تمثلت فيما رسبته البيئة الصحراوية والبيئة البحرية في أعماق الإنسان الخليجي من قيم اجتماعية وروحية تمثل ضرورة حضارية تضرب بجذورها في عمق الزمن لقرون بعيدة[1]. لقد تزاوجت هاتان البيئتان وامتزجتا لينتج عنهما تكوين جديد هو البيئة الخليجية بكل مقوماتها وحضاراتها وثقافتها، التي شابها الكثير نتيجة هذه النهضة المادية وكذا النزوح لكثير من الجنسيات، ولقد أثار هذا النزوح بقوامه المادي والبشري انزعاج المفكرين والباحثين حيث انه يؤدي كما يقول الدكتور حسن الخياط إلى قطع الجسور بين الماضي والحاضر وإلى طمس معالم التراث الحضاري بالمنطقة، بل إن أثره يمتد إلى جوهر العلاقات الإنسانية وسلوكيات المواطنين حيث يرى الدكتور الرميحي أن اقتلاع الإنسان الخليجي من البيئة الحضارية والاجتماعية التي تعود عليها قد قطع جذور العلاقات الاجتماعية الراسخة[2]. وتنسحب تلك المؤثرات على قطر باعتبارها إحدى دول الخليج العربي التي تجمعها بباقي دوله ظروف جغرافية وتاريخية وحضارية مشتركة.

فهي تشترك في وحدة التجربة الإنسانية العامة، وفي التكوين النفسي المشترك والتطور المتوازي والمتقارب للمجتمعات الخليجية العربية، وأخيراً الأسس الحضارية للعوامل الجغرافية والتاريخية واللغوية والروحية[3].

من هنا تبرز أهمية هذا التقرير لتأصيل الشخصية القطرية بأبعادها ومحاولة تأكيد خصائصها المميزة في مواجهة تلك المؤثرات الوافدة.

والشعب القطري هو شعب عربي أصيل يمتد في جذوره إلى شبه الجزيرة العربية من قبائل عربية انتقلت من الجزيرة العربية ومن نجد بالذات واستقرت في هذا المكان، ومن قبائل عربية انتقلت من الساحل الفارسي إلى الساحل القطري، وهم ما يطلق عليهم اسم الهولة أو الحولة أي الذين تحولوا من ساحل فارس إلى ساحل قطر، لقد حملت هذه القبائل وتلك معها فنونها وتراثها وآدابها الصحراوية والبحرية، وتفاعلت مع البيئة الجديدة فنتج تكوين جديد من الثقافة والأدب عرف باسم الأدب القطري بخصائصه وقسماته المميزة.

---

(١) دكتور ماهر حسن فهمي - القصة القصيرة في قطر (دراسة فنية اجتماعية) - المقدمة - ص ١، ٢، ٣.

(١) دكتور ماهر حسن فهمي - أخذها عن مجلة الدوحة العدد ٨٦ فبراير ١٩٨٣ م وأوردها في مقدمة القصة القصيرة في قطر - ص ٢، ٣.

(٢) دكتور محمد طالب الدويك - القصص الشعبي في قطر - جـ ١ - الطبعة الأولى ١٩٨٤ م - ص ٢١.

وقد احتك هذا التراث بالوافد عليه فتأثّر وأثّر فيه مدّاً وجزراً مما جعل لهم شخصية وأدباً خاصاً بهم يشترك مع أدب وثقافة المنطقة الخليجية العامة. فالمنطقة كالأواني المستطرقة تتداخل في بعضها بعضاً[1].

بداية القصة القصيرة في قطر:

تعتبر القصة القصيرة في قطر حديثة المولد، فقد بدأت تقريباً ببداية الصحافة في قطر، أي بداية السبعينات كما أوردها الدكتور محمد عبد الرحيم كافود في كتاب «الأدب القطري الحديث[2] ويردف قائلاً: أما الرواية أو القصة الطويلة فهي حتى الآن لا تكاد ترى النور على الرغم من أن الرواية بحاجة إلى جهد أكبر وثقافة أوسع في كتابتها، بالإضافة إلى أن القصة القصيرة أصبحت في الوقت الحاضر هي الفن المسيطر على الحياة، فاتجه إليها بعد ظهور بوادر النهضة الأدبية في قطر. فقد تفتحت المواهب الأدبية في البلاد، وهي ترى أمامها أن القصة القصيرة أصبحت سيدة الموقف فاتجهوا إليها.

والقصة القصيرة في قطر ما زالت في طور النشأة وبداية الطريق وهي ماضية في استكمال تطورها ونضجها بصورة مشجعة.

وإذا تتبعنا بدايات القصة القصيرة في قطر وما وصلت إليه حتى وقتنا الحاضر، وجدنا أن الطابع الرومانسي هو الطابع الغالب عليها وإن كان الاتجاه الواقعي بدأ يتبلور بصورة واضحة في الآونة الأخيرة.

إن هذا التقييم فيه كثير من التسامح والتجاوز، وذلك لوجود الكثير من التداخل والتمازج بين القصص ذات الطابع الرومانسي وبين القصص الواقعية، بل نستطيع القول بأن التقسيمات بين المذاهب الأدبية بصورة عامة تقسيمات تقريبية تعتمد على رصد بعض الملامح والقسمات والخصائص الغالبة على هذا الفن أو ذاك، وإدراجها تحت مذهب معين بحكم أن هناك سماتٍ وخصائص تغلب على هذا العمل، فنصفه بالرومانسية أو الواقعية أو الرمزية إلى آخر تلك التسميات والتقسيمات[3].

ولهذا اتجهت في هذا التقرير إلى أخذ نماذج من هذه القصص وتحليلها بشكل مبسط وإلقاء بعض الضوء عليها من الناحية الفنية والموضوعية مع الإشارة إلى مدى ارتباط هذه القصص في البيئة القطرية. كما أننا من خلال تتبعنا لهذا الإنتاج نلاحظ أنه في تطور تاريخي مستمر، فقصص أواخر الستينات وبداية السبعينات تختلف عن القصص التي ظهرت في أواخر السبعينات سواء من حيث الكم أو الكيف على الرغم من قصر هذه الفترة، فهي في الفترة الأخيرة أكثر نضجاً وأقوى اندفاعاً وانتشاراً.

وخاصة منذ بداية الثمانينات حيث بدأت القصة تأخذ مكانها في النتاج الأدبي في قطر سواء من حيث الكم أو من حيث الكيف، ونظراً لقصر الفترة الزمنية بالنسبة لظهور القصة وعدم غزارة الإنتاج فإننا في الحقيقة لا نلمس أو لا نجد أن القصة قد مرت بمراحل متباينة كما هو حاصل بالنسبة لتاريخ نشأة القصة في بعض بلدان المنطقة. وبالإضافة إلى اكتمال ونضج هذا الفن واتضاح معالمه في العصر الحاضر، ونظراً لتبلوره بصورة واضحة في أذهان الكتّاب، فإننا نلاحظ أن القصة القصيرة قد بدأت في قطر وهي أقرب إلى تحقيق الكثير من الأصول والتقاليد الفنية المتعارف عليها في هذا الفن بالرغم من أن هذه القصص كما ذكرنا تمثل البدايات بالنسبة لكتّابها، إلا أن الظروف الثقافية والتواصل الفكري بين أقطار الوطن العربي، واطلاع الشباب على الكثير من النماذج القصصية لكبار كتّاب القصة في الوطن العربي قد بلور لديهم معالم هذه القصة ومن هنا نجد أن النغمة الإصلاحية المباشرة التي اتسمت بها بدايات القصة القصيرة في العديد من الأقطار العربية، هذه النغمة أو هذا النوع من القصص قد اختفى إلى حد ما من تاريخ القصة القصيرة في قطر وإذا بدت ملامح النزعة الإصلاحية بارزة عند بعض الكتّاب إلا أنها مغلفة بملامح الاتجاه الرومانسي[1].

وحين نقف عند الاتجاه الرومانسي في القصة القصيرة في قطر نجد أن هناك عدة عوامل[2] أدت إلى ظهور هذا الاتجاه بصورة واضحة في القصة القصيرة.

أولها أن معظم كتّاب القصة قد نشأوا وتتلمذوا على القصة الرومانسية العربية، حيث إن الاتجاه الرومانسي كان قوياً في مجال القصة كقصص المنفلوطي ومحمد عبد الحليم عبد الله ومحمود تيمور ونجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس في قصصهم الرومانسية، وقد كان لهؤلاء الرواد تأثير كبير في القصة القصيرة فتتلمذ عليها كتّاب القصة من الشباب وتأثروا بها. ولا غرابة أن نجد نماذج من هذه القصص تتمثل أو تسير على نفس الأسلوب والطريقة في توجيه مصير الشخصيات وما تلاقيه من إحباطات، بل إن بعضهم

(١) دكتور محمد طالب الدويك ـ القصص الشعبي في قطر ـ جـ ١ ـ ص ٥.

(٢) دكتور محمد عبد الرحيم كافود ـ الأدب القطري الحديث ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م ـ ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٣) د. محمد عبد الرحيم كافود ـ القصة القصيرة في قطر ـ ص ١٠٥.

(١) د. محمد عبد الرحيم كافود ـ القصة القصيرة في قطر ـ ص ١٠٣، ١٠٤.

(٢) د. محمد عبد الرحيم كافود ـ القصة القصيرة في قطر ـ ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧.

يستوحي بيئة تلك القصص ويحاكيها.

وإلى جانب تأثرها بالقصة الرومانسية العربية نجد أن للمجتمع والبيئة أثرها الواضح في بروز الاتجاه الرومانسي في القصة القصيرة في قطر.

فمما لا شك فيه أن هذه التغيرات السريعة في بنية المجتمع القطري وانتقاله من مجتمع تقليدي تحكمه العادات والتقاليد في مختلف أوجه الحياة إلى مجتمع متحضر تأثر بالحضارة الحديثة وأخذ عنها الكثير من العادات والتقاليد والنظم الحديثة لا بد أن يثير هذا التغير الكثير من الجدل والرفض في بعض الأحيان وعدم التأقلم والتردد عند بعضهم. وهذا لا بد أن يحدث لأي مجتمع من المجتمعات، فالالتقاء الحضاري بين حضارتين لا بد أن يحدث هزة ويحدث خلخلة وخاصة في الحضارة أو المجتمع الأضعف منهما، وغالباً ما نجد هذا النوع من المجتمعات يلجأ إلى قيمة وعاداته وتراثه وماضيه يتشبث به محاولاً أن يواجه الواقع الذي يفرض عليه، أو لإيجاد نوع من التوازن وإثبات الذات.

وكتّاب القصة هم الذين عايشوا بالفعل مرحلة التحول والتغير الذي يشهده المجتمع على أثر ذلك التغير الاقتصادي الهائل الذي شهدته المنطقة وما صاحبه من دخول أنماط متعددة من القيم والعادات والتقاليد الوافدة بمختلف السبل سواء عن طريق تلك الأجناس الوافدة إلى المنطقة من شرقية أو غربية أو عربية أو عن طريق وسائل الأعلام والانفتاح على العالم الخارجي. كل هذه الأمور كان لها أثرها الواضح في تركيبة الحياة الاجتماعية وما أحدثته من هزة عنيفة تمثلت في ذلك الصراع بين العادات والتقاليد والقيم التي يتمسك بها المجتمع وبين العادات والتقاليد والقيم الوافدة وما تحمله من مفاهيم حضارية جديدة والكثير منها ربما يتعارض مع ما في هذا المجتمع من تقاليد عربية وإسلامية وخاصة فيما يتصل بوضع المرأة وموقف المجتمع منها.

ولذلك نجد أن كثيراً من القصص تدور موضوعاتها أو تصور حالة القلق والحرمان والضياع التي تعيشها المرأة، فالنظم الاجتماعية المحافظة لها أثرها على وضع المرأة في المجتمع، إذ كانت تحس من خلالها بأنها مكبلة ببعض القيود التي تحد من حريتها وتهضم حقوقها كأنثى، فهي كما تصور كتاباتها - في القصة - لا تمتلك التصرف حتى في أدق خصوصياتها كمسألة اختيار الزوج شريك حياتها بل أحياناً حتى ملابسها لا يكون لها حق الاختيار فيها، لذلك لا غرابة أن نجد الفتاة هي صاحبة النصيب الأوفر في مجال كتابة القصة صاحبة المعاناة الحقيقية وهي خير من تعبر عنها[1]. كما في قصص الكاتبة كلثم جبر[2]. فقد نشرت لها مجموعة من القصص في الصحف المحلية كمجلة الدوحة ومجلة العهد، ومجلة العروبة على فترات مختلفة مثلها كمثل غيرها من الكتّاب والكاتبات وأخيراً جمعت هذه القصص في مجموعة واحدة باسم «أنت وغابة الصمت والتردد» وتحتوي هذه المجموعة على ست عشرة قصة تُصور بعضاً من جوانب الحياة في المجتمع القطري من خلال علاقة الرجل بالمرأة، ومن خلال هذه العلاقة تتضح لها بعض المفارقات التي يعاني منها المجتمع أو بالأخص ما تعاني منها الفتاة القطرية التي تعيش في مرحلة انتقالية بين عهدين، عهد قديم يربطها بعاداته وتقاليده وموروثاته. وعهد جديد ربما في الغالب ما يوحي لها بتنافيه مع تلك الأعراف والتقاليد التي تعيشها، ولذلك فقد جاءت هذه القصص كما يقول الدكتور محمد عبد الرحيم كافود تعبيراً حياً للتجارب الذاتية التي لا نغالي إذا قلنا أنها تصور بحق موقف الفتاة القطرية في هذه الفترة وما تنشده من تغيير في بعض المفاهيم التي تكبلها، لذا فقد جاءت هذه الأفكار التي تناقشها متدفقة تقترب أحياناً من الإلقاء المباشر والوعظ في بعض الأحيان، نتيجة لتحمس الكاتبة لهذه الموضوعات مما يبعدها نوعاً ما عن انضواء مجموعتها تحت فن القصة القصيرة بمفهومها الفني الدقيق، فالموضوعية والابتعاد عن الذاتية والبوح المباشر من السمات التي يجب توافرها في القصة القصيرة إلى جانب الشروط أو السمات الأخرى. ونظراً لغلبة التجارب الذاتية على الكاتبة فقد جاءت هذه القصص متقاربة سواء من حيث البناء أو من حيث الأفكار التي تدور حولها كذلك، فإن الجو الرومانسي هو الطابع المميز لهذه القصص شكلاً ومضموناً، وهذه القصص هي: حائرة، قصة حب، شرخ في المرأة، بقية الحكاية، نهاية رحلة، سوف أقول وداعاً، امرأة حاقدة، الدوامة، زهرة الزنبق، عندما تموت الكلمات، الوهم، الزيارة، ليل وأسى، أريدك معي، الباحثة عن السعادة، أنت وغابة الصمت والتردد.

وعن الأسلوب يقول الدكتور محمد جابر الأنصاري في كتابه «تراث قطر وثقافتها المعاصرة»[3] أما أسلوب الكاتبة فهو مرحلة وسط بين النثر والشعر وجاء ملائماً لطبيعة الموضوع الذي تعالجه منسجماً مع العاطفة الأنثوية التي لا تكف عن البوح الأليم من بداية الأقاصيص إلى نهايتها. وهي أقاصيص نخطىء إذا بحثنا فيها عن شروط القصة القصيرة ومواصفاتها، لأنها في حقيقتها بوح ذاتي يأخذ شكل الحكاية لا أكثر (كذا).

(١) د. محمد عبد الرحيم كافود - القصة القصيرة في قطر - ص ١٠٧، ١٠٨.

(٢) د. محمد عبد الرحيم كافود - الأدب القطري الحديث - ص ١٢٧، ١٢٨.

(٣) د. محمد جابر الأنصاري - تراث قطر وثقافتها المعاصرة - ص ٨٣.

نشر القصة القصيرة:

لقد قامت عدة إدارات وجهات في نشر هذه القصص وكان على رأسها إدارة الثقافة والفنون بوزارة الإعلام، فأخذت على عاتقها نشر القصة القصيرة ضمن أمور أخرى ثقافية وفنية فأجرت في منتصف السبعينات المسابقات بين الأقلام القطرية الشابة الواعدة في غير مرة وفي غير مناسبة بين الجنسين وأفرزت هذه المسابقات عدداً من القصص فازت بمكافآت مالية ومن ثم بمكافآت أدبية بأن طبعت ونشرت بين دفتي كتب كان منها «أصوات في القصة القطرية الحديثة» اختيرت من بين عدد لا بأس به من القصص الأخرى. والقصص الفائزة هي: «ليلى» للكاتبة وداد عبد اللطيف «وبدأ حديث آخر» لحصة يوسف. «وبداية الطريق» لمريم محمد عبد الله. «ورحلت في هدوء» لزهرة يوسف المالكي. «وصفاء الروح» لناصر صالح الفضالة. «والهوة» لنورة محمد آل سعد وأخيراً «خواطر فتاة صغيرة» لأمينة اسماعيل الأنصاري.

ثم أجريت فيما بعد مسابقة أخرى فاز فيها تسعة أشخاص وعدت الإدارة بنشر القصص الثلاث الأولى في كتاب وهي على التوالي: «الفائض» لومضة أمل و «الأيام لا تعود» لهاني مال الله. و «العائدون من الجنة» لمحمد سيف علي الكواري.

أما القصص الست الأخرى فهي كالتالي:

«الصمت» لكلثم علي «والولادة الثانية» لجمال فايز خميس السعيد. «والصورة» لسميرة ميرزا محمد حسين القاسمي «وأنفاس تائهة» لشيخه علي جاسم مكي. «وقراءات في أعماق امرأة» لمها عبد اللطيف الكواري وأخيراً «الأبناء» لمريم علي يوسف النصف.

هذا وما زال باب المسابقات مفتوحاً فيما يستقبل من زمن.

أما الجهات الأخرى التي تعنى بالمسابقات ـ حيث أن هذا المجال رحب يكشف عن الأقلام الواعدة ـ فهي المجلس الأعلى لرعاية الشباب بالإضافة إلى ما تجريه أيضاً وزارة التربية والتعليم من مسابقات أدبية في القصة وغيرها الخ...

أما القصص التي تنشر في الصحف والمجلات من قبل أصحابها فلا بأس في عددها ومضمونها ولها قراء ونقاد.

إن القارىء لسبعة أصوات في القصة القطرية الحديثة وغيرها من القصص يجد أنها تعبر عن أصحابها وتنبع من بيئتهم وهي بإيجاز شديد، البضاعة المحلية الخالية من كل غريب ومستورد، وبالرغم من أن بعضها لم يلتزم بالبناء الفني للقصة وأركانها، إلا أنها ظاهرة جيدة تسترعي الاهتمام من حيث أهدافها ومراميها. فقد نجحت بعض الأقلام في معالجة هذا البناء وتلك الأركان من خلال قصصهم في حين ابتعد بعضها وشط عن سلامة هذا الاتجاه من حيث الشروط والمواصفات التي ينبغي توافرها في هذا النوع الأدبي.

إن أهم ما في هذا التقرير إنه يضع بصماته على الإنسان القطري الشاب الذي يريد أن يحيا، وهو لكي يحيا لا بد له من العمل المتواصل الدؤوب في مجال الكلمة المكتوبة والمنطوقة والمرسومة والمنظورة حتى يصل إلى بغيته[1].

إن الناظر إلى هذه المجموعة القصصية قد لا يجد خيطاً واحداً ينتظمها كلها أو يضفي عليها خصائص وسمات مشتركة، بل إننا قد نجد في إطلاق صفة القصص على عدد منها بعض التجاوز والمرونة في استخدام المصطلحات من حيث الشروط والمواصفات التي ينبغي توافرها في هذا النوع الأدبي.

بيد أنه يجب ألا يغرب عن بالنا بأن هذه المحاولات إنما تمثل بأكثر من معنى، بواكير القصة في قطر وهي بواكير جاءت في سياقها الطبيعي من تطور حركة المجتمع والثقافة في البلاد وفي منطقة الخليج العربي بأسرها.

ذلك أن نشوء هذا النوع الأدبي مرهون بشيوع مستوى معين من التعليم وبنضج التجربة الاجتماعية التي تخلق المعاناة الأدبية والفنية الحقة. وتلك ظروف مستجدة في الحياة القطرية ولم تبدأ بالبروز والتبلور إلا خلال العقود الثلاثة الماضية على أكثر تقدير ـ كما أشرنا في بداية التقرير ـ وأول ما يطالعنا ويستوقفنا قبل أن ندخل حدود هذه القصص هو أنها كلها باستثناء واحدة فقط مكتوبة بأقلام الفتيات ـ وهذا ما أثبتناه في مستهل حديثنا عن القصة القطرية الحديثة ـ وقد تحمل هذه الظاهرة طابع المفاجأة المدهشة، غير أنه لا ينبغي تفسيرها على أنها دليل على تفاوت الموهبة القصصية أو الحماس للكتابة بين الجنسين، بل يجب أن ينظر إليها من منظور اجتماعي بحت، فالمجتمع القطري على الرغم مما حققه من منجزات في مجالات التصنيع والعمران والخدمات الاجتماعية العصرية، وعلى الرغم مما أحرزته الفتاة في مجال التحصيل العلمي، والمشاركة في قطاعات محددة من الحياة العامة ما زال في جوهره مجتمع رجال أي مجتمعاً أبوياً قوامه الرجل، ويتاح فيه للرجل وحده حرية التعبير النسبية للتحدث عن هموم الرجال أيضاً.

وفي ظل هذه الضغوط والكوابح الاجتماعية تغدو الكتابة وكذلك القراءة أشبه بالبوح أو الخلوة المأمونة، تستطيع الفتاة أن يجأر فيها بالشكوك، وتتمرد وتهشم السدود والحواجز الاجتماعية أو تتصالح معها وتقبل بها.

ومن هنا فإن الكتابة التعبيرية بالنسبة للفتاة القطرية

(١) قسم الدراسات والبحوث بإدارة الثقافة والفنون ـ ٧ أصوات في القصة القطرية الحديثة ـ ص ٣، ٤.

تصبح بمثابة المتنفس والمخرج من دوامة الإحباطات الاجتماعية التي تكتنفها. وذلك لا يعني أن معاناة قطاع الفتيات من الجيل القطري الجديد منفصلة عما يعانيه الشباب القطري، إذ أن معاناة الجنسين قد تكون وجهين لحقيقة واحدة، غير أنها تعني بالتأكيد إن مدى الحرية التي أتاحتها المواصفات الاجتماعية للشباب القطري تمكنه من التعبير عن طموحاته ومشاغله الحياتية بطريقة أكثر جرأة وصلابة بدلاً من أن تختزن صرخته في قصة أو قصيدة.

إن المواصفات الرئيسية التي تتمحور حولها القصص السبع في هذه المجموعة، نجد أكثرها يدور في فلك نصفي أشبه بقوس قزح تستقر في أحد طرفيه مجموعة من المواصفات الاجتماعية الموروثة التي تجد الشخصية الرئيسية نفسها أسيرة لها ومكبلة بقيودها، وعلى الطرف الآخر تكمن منطقة الحلم والانطلاق والطموحات الجديدة، وبين هذين الطرفين اللذين يمثلان أرض الواقع وآفاق الحلم رقعة من التوتر والشد والجذب والحركة الاجتماعية والنفسية الدائمة[1].

«ففي بداية الطريق» لمريم عبد الله تتضح هذه الثنائية بين الواقع والحلم بصورة جلية، ويتمثل هذا برفض ليلى الزواج من ابن خالتها قاسم الذي اختاره أهلها لها بحكم الموروث عندهم. إن هذا الأمر أصبح ملازماً للفتاة كظلها لا تستطيع الفكاك منه إلا بالإقناع والتوسل لدى والدتها بأن لا بديل أمام الفتاة عن حرية الاختيار لتقرير مصيرها بنفسها وتأكيد هذا الحق هو بداية الطريق، وهذا ما أمر به الإسلام من سؤال الفتاة وعدم إرغامها على الزواج ممن لا تحب، لكن العرف والعادة تغلق كل هذه النوافذ لتضع الفتاة أمام مصيرها المحتوم والمرسوم مسبقاً من صغرها، بأن بنت العم لابن العم أو لابن الخال أو الخالة. وكم من بيوت دمرت لعدم هذا التناسب سواء من حيث السن أو الثقافة باسم العمومة الخؤولة.

أما قصة خواطر فتاة صغيرة لأمينة إسماعيل الأنصاري، فتتخذ مساراً آخر بين انغلاق الواقع ورحابة العلم.

إن نورة فتاة متمردة مستقلة الإرادة تريد أن تصبح ممثلة شهيرة ضاربة بذلك العادات والقيود عرض الحائط، وبموازنة الجموح الاجتماعي الغريب عن البيئة ـ نجدها تسعى إلى انتزاع خطيب شقيقتها والاستئثار به.

والحادثتان تعتبران من المخالفات الاجتماعية الكبيرة ضمن الموروث القائم، ولم ينقذها من هذه الهوّة سوى صحوتها في نهاية المطاف والإحجام عن هذا الجموح والعودة بسلام والاستسلام لما هو قائم ومعروف.

إذن هي حاولت جاهدة الإفلات من فلك العادات والتقاليد الاجتماعية الماثلة أمامها إلى أجواء أخرى لكنها لم تلبث أن آثرت السلامة ورجعت القهقرى إلى واقعها المألوف خوفاً من العواقب الوخيمة التي تنتظرها من جراء هذا التغيير.

ويعالج ناصر صالح الفضالة في قصة «صفاء الروح» هذه المفارقة بين الواقع والحلم من زاوية أخرى في سياق مختلف كل الاختلاف، إن خالد يتوجه إلى الغرب للدراسة تاركاً وراءه خطيبته صفاء، وهناك يتعلق بأخرى هي «جنيت» لكنه يكتشف أنها لم تكن له لوحده، مما جعله يتخلى عنها ويعود أدراجه إلى بلده كي يقترن بخطيبته صفاء النقية الطاهرة.

إن حركة الأحداث والشخصيات خالفت مسار قصة «بداية الطريق» فالفتاة في قصة مريم محمد عبد الله ترفض ابن خالتها، بينما الفتى في قصة ناصر الفضالة يؤثر ابنة عمه على الأجنبية اللعوب. والفرق بين الموقفين هو فرق في المنظور الاجتماعي، فهو في الحكاية الأولى دليل على الرغبة في إثبات الذات، بينما هو في الثانية عودة إلى المنبع والجذور بعد مرحلة من الضياع العاطفي.

وفي قصة «وبدأ حديث آخر» لحصة يوسف، نجد أحمد ـ المتعلم الواعي ـ يدرك أن ليلى التي اختارها لتكون شريكة حياته المقبلة ليست هي الفتاة المفضلة التي ستبقى وتدوم معه، على عكس مريم الرصينة الوقورة المعاندة التي تحبه ويحبها. فليس صحيحاً أن العلاقات التي ننخرط فيها بكامل إرادتنا واختيارنا هي أبقى وأجدى من التي تفرضها علينا المواقف الاجتماعية كما وضح في قصة حصة يوسف.

وفي قصة «خواطر فتاة صغيرة» نجد نورة قد وقعت في إثم حينما خطفت خطيب اختها في لحظة غفلة منها، وهي لا تحظى بأي تعاطف من جانبنا، لأن نواياها هذه تنطلق من مجرد الرغبة في التحدي. أما مريم فتعطي لعواطفها مشروعية ومصداقية واضحتين، فالشخصيات هنا لا تحاول الانفلات من قيود الموروثات الاجتماعية بل تؤكد على حرية الاختيار العاطفي، فليس ثمة ضغوط ومواصفات خارجية تحدد السلوك، بل مناخ من الحرية النسبية تستطيع فيه الشخصيات أن ترسم طريقها بنفسها.

أما في قصة «الهوة» لنورة محمد آل سعد، فإنها تنحى منحى هروبياً إزاء المشكلات الاجتماعية المطروحة أمام الفتاة القطرية، إنها تستعرض في هذه القصة بانوراما يوم دراسي في حياة الطالبة الجامعية «نوال» التي تبحث عن معنى وجودي لعلاقتها بالآخرين وبالأشياء، والقصة مليئة بالرموز والأقنعة والتمويه التي تستحق التفسير في كل لحظة وآن. وفيها الخوف والإحجام عن التصدي للواقع الاجتماعي إلى حد أنها تفكر معه إحدى الشخصيات بمسرحية تجري أحداثها في

(١) فايز صباغ ـ ٧ أصوات في القصة الحديثة ـ ص ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢.

المريخ. على حين نجد قصة ليلى مؤثرة تعكس معاناة إنسانية فردية أمام الحضور الفاجع للموت كما أنها في تسلسل بنائها الدرامي مفزعة في بعض الأحيان ولا سيما الموقف الذي تخلع فيه رواية القصة القبعة عن رأس الطفلة ليصدمها خلوه من الشعر بسبب علاج السرطان بالأشعة.

كما أن الإصرار على استمرارية الحياة هو من المنعطفات الإنسانية الرقيقة في القصة عندما تسمى الراوية مولودتها التي طال انتظارها باسم الطفلة الراحلة.

إن طالبة الطب في قصة «ورحلت في هدوء» لزهرةالمالكي تعود من إجازتها الصيفية حاملة ساعة يد لتقدمها هدية لبائعة الجرائد أم محمود، فتجد أن السيدة العجوز قد رحلت إلى العالم الآخر الذي لن تحتاج فيه إلى ما يقاس به الزمن بالدقائق ولا الساعات والا السنين.

وفي قصة «الأيام لا تعود» نرى جابراً يعيش في قرية صياداً ويتزوج من نورة التي تعيش في كنف زوجة الأب، ويحب جابر نورة وينجب منها راشداً، ثم ما تلبث نورة أن تموت، فيرعى جابر ابنه راشداً إلى أن يتخرج طبيباً بعد طول معاناة قضاها الأب في خدمة الابن.

ثم يأتي عصر الانقلاب المادي الذي قلب الحياة رأساً على عقب وعصف بالركائز الاجتماعية أو كاد، التي عاشت في هذا المجتمع التقليدي لنجد راشداً قد ترفّع عن أبيه إلى درجة أنه تزوج دون علم منه، ثم أخيراً يكافىء أباه مكافأة سيئة حين يضع رمز الكفاح في ملجأ للعجزة، ويبقى الأب في الملجأ إلى أن يقضي نحبه ويموت ليبقى الابن العاق مع مظهريته التي أودت به إلى غضب الدنيا والآخرة.

إن الانفصام الذي أصيبت به بعض الشخصيات نتيجة ظهور البترول وجري المادة بين أيديهم بسهولة جعل بعضهم يتخلى عن مناقب السابق ويتمسك بمثالب الحاضر المادي.

وفي قصة «العائدون من الجنة» إبراهيم ومسعود أخوان قد تذمروا من الأرض التي يعيشان عليها فيدلهما الشيخ إلى جزيرة «الجنة» ليعيشا سعيدين إلى أن دب الخلاف بينهما، فانداحت الجنة من تحتهما وهرب الجميع وبقي الإنسان هو الإنسان.

إن هذا الانفلات من المكان والذهاب في طريق مجهول بحثاً عن السعادة التي طرقها من قبل جلجاش أمر مجهول العواقب لا يعود على صاحبه إلا بالوبال.

وأخيراً نقف أمام قصة «الفائض» مذهولين من الصراع الطبقي بين الطبقة الغنية وبين الطبقة الفقيرة هذا الصراع الذي يقف حجر عثرة في سبيل التئام المحبة بين فتاة غنية وبين ابن خالتها الفقير. فقد كان أهل الفتاة يعطون فائضهم من الحاجات والفلوس إلى الفقراء ومنهم خالة الفتاة، هذا العطاء وذاك الأخذ جعل هوة سحيقة بين الاثنين وحال بينهما، بحيث بقيت الفتاة في بيت أبيها دون طرق بابها وأصبحت فائضاً بعد كبر سنها وفوات الأوان لزواجها وأضحت كسقط المتاع الفائض، فمن يأخذ هذا الفائض يا ترى الآن. بالطبع لا أحد، وتمثل هذا الأمر بقولها حين كانت في آخر زيارة لخالتها: «لقد خشيت من أن يسقط شيء مني.. جزء من بقايا... هي بالتأكيد من بقاياي».

لقد كانت الفتاة تبدو للعيان كتلة قوية صلبة مع أن حقيقة داخلها هش ضعيف يرنو إلى الحنان إلى أي طبقة كانت، تريد أن تكتمل شخصيتها بالزواج كما يحدث لغيرها.

وهكذا نرى أن نتاج هذا الجيل التي تتسم أعماقه بالقلق والتمزق وتسود أعماله مشاعر الاغتراب نتيجة التضارب الحاد بين واقعه وطموحاته يقوم على اتجاهات هي: التمرد القلق، الهروب إلى الداخل، التهويم الرومانسي، العودة للجذور.

إن هذه التجارب التي مررنا عليها فيها الكثير من التنوع والثراء غير أنها تكتفي في مجملها استلهام عدد من الهموم التي تعتمل في أوساط المجتمع القطري والخليجي الحديث وهي أصوات مفردة متميزة بالفعل، رغم أنها تصدر عن أوتار تكاد تكون متشابهة وهي مع المساهمات الأخرى التي ظهرت في الصحف والمجلات المحلية والخليجية لكتّاب القصة، تشكل البدايات الواعدة للقصة القصيرة في قطر.

المراجع

١ ـ دكتور/ماهر حسن فهمي ـ القصة القصيرة في قطر ١٩٨٥ م.

٢ ـ دكتور/محمد جابر الأنصاري ـ تراث قطر وثقافتها المعاصرة ١٩٨٠ م.

٣ ـ دكتور/محمد طالب الدويك ـ القصص الشعبي في قطر ١٩٨٤ م.

٤ ـ دكتور/محمد عبد الرحيم كافود ـ الأدب القطري الحديث ـ الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.

٥ ـ دكتور/محمد عبد الرحيم كافود ـ القصة القصيرة في قطر ـ ١٩٨٥ م.

٦ ـ قسم الدراسات والبحوث بإدارة الثقافة والفنون ـ ٧ أصوات في القصة القطرية الحديثة ـ ١٩٨٣ م.

٧ ـ قسم اللغة العربية ـ كلية الإنسان والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر ـ المدخل لدراسة الفنون الأدبية ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٢ م.